ولكن لا يجوز استعمالهُ الاَّ عند عدم نجاح الادوية المذكورة سابقاً وتفاد كل الحيل

وقد استنبط بعضهم طريقة جديدة لمعالجة الارق وذلك بان يوضع على رأس العليل خوذة متصلة بمحرك كهربائي صغير يرنُّ . . . ارتجاجة في الثانية فهذه الارتجاجات الثابتة على نغمة واحدة توصلها الخوذة الى الدماغ تسبب نوماً عميقاً

قصة لويس ده رُجمون

الفصل الثالث

(تابع ما قبله)

لم يمضِ عليَّ شهر في بلاد يبا حتى شهدتُ اول ولية من لحوم الناس فان رجلاً من المعدودين بين قومها مرض ومات فشاع ان واحداً من قبيلة اخرى سحرهُ حتى مات وللحال اجتمع مئات وتدججوا باسلحتهم وقصدوا القبيلة التي اتهموها بهذا المنكر فخرج رجالها للقاء رجالنا وقبل ان دارت رحى الحرب برز بطل مجرَّب من ابطالنا الى وسط المصاف ونادى رجال العدو وقال لهم انا اتيناكم لاخذ الثار وكشف العار فبرز اليهِ بطل من ابطالهم وانكر عليهِ ما قال ثم تعايرا وتشاتما برهة من الزمان وانقلبا راجعين كلٌّ الى قومهِ وبرز اثنان غيرهما فتشاتما وتعايرا برهة وانقلبا راجعين وبرز غيرهما وكان كلٌّ من الخصمين يسبُّ قلب خصمهِ وكبدهُ واباهُ وجدَّهُ . وظلَّ الفريقان يقتربان رويداً رويداً الى ان رشق واحد منهما رمحاً فاشتبك القتال وحمي وطيسهُ ولم يكن الاَّ دقائق قليلة حتى دارت الدائرة على العدو فاركن الى الفرار ولم يسقط منهُ في ساحة الوغى الاَّ ثلاثة وكانوا جرحى لاقتلى فاجهز عليهم رئيس قومنا بسيوفهِ وحمل الرجال اشلاءهم وعادوا بها الى المحلة

واتضح لي حينئذٍ ان القوم يقصدون باكل هذه الاشلاء ولم يكن في وسعي منعهم فلم اتعرَّض لهم . وللحال ركع النساء على ركبهنَّ وحفرن ثلاث حفر كبيرة في الرمل طول الحفرة منها سبع اقدام وعرضها ثلاث ووضعنَ في كل حفرة منها جسماً من اجسام القتلى وغطينهُ بالحجارة والرمل وجمعنَ الحطب فوق الحفر واضرمنَ فيها النار وظللنَ يوقدنَ ساعتين من الزمان . وكان القوم في جذل عظيم حتى اذا ظنوا ان الشواء قد نضج نبشوا الحفر ومجمت القبيلة كلها كالاسود الضارية واختطفت اللحم ومزقتهُ ارباً ارباً . ولعجز القلم عن وصف ذلك

المشهد وسياجته فاغمضت عيني عنهُ لان امعائي جاشت في داخلي واسرعت الى كوخي واختفيت عن الانظار. ولا طيل الكلام في هذا الموضوع بل اتركهُ وانتقل الى موضوع آخر

والنساء في هذه القبيلة وديعات غالبًا لا يخصمن لاَّ اذا غيَّرت احداهنَّ الاخرى باهلها او اذا تزوَّج رجل بضرة حسناء فان ضرَّتها تنتقم منها على حسبها وطريقة الانتقام عندهنَّ ان تمضي لزوجتان الى مكان منفرد ومعهما ثبوت واحد فتحني احداهما راسها وتضربها الاخرى بالثبوت على صلب ظهرها بين كتفيها ضربة لو اصابت امرأة من الاوربيات لقتلتها فتجلد المضروبة وتنهض وتأخذ الثبوت وتضرب الضاربة على صلب ظهرها كما ضربتها . ولا تزالان تتناوبان الضرب على هذه الصورة حتى تقع احداهما مضرَّجة بالدماء فاقدة الرشد. والغائزة في هذه المضاربة تبقى فائزة على ضرَّتها مدى العمر برضى الاثنتين ولا تحقد المغلوبة على الغالبة ولا تترك الغالبة المغلوبة بل تضمد جراحها وتعود بها الى البيت كانهُ لم يحدث شيءٌ سوى الاستدلال على ايتهما اجدر بالاكرام

واذا ولدت امرأة وخافت ان يتعبها طفلها او يمنعها من قضاء اعمالها قتلتهُ واكلتهُ . وقد تحفظ عظامهُ وتعلقها برقبتها تذكارًا لهُ

وحدث في تلك الاثناء حادث كان لهُ وقع عظيم في نفوس الاهلين وشأن كبير في منزلتي عندهم ولكنهُ يأسني من العودة الى بلادي. قلت اني كنت انزل الى البحر اصيد السمك واتفق اني نزلت ذات يوم على جاري عادتي وبينما معي ولما صرت على بضعة اميال من البر شاهدت في البحر شيئًا اسود فظننتهُ سمكة ورميتهُ بالحربة بعد ان ربطت بها حبلاً طولهُ نحو خمسين قدمًا فلم تكد تبلغهُ حتى رفع رأسهُ في الهواء متأنقًا وبان لي حينئذٍ انهُ من اولاد الحيتان الكبيرة طولهُ نحو خمس عشرة قدمًا . ثم جلد الماء بذنبهِ وسار في البحر مسرعًا وجرَّ قاربي معهُ لان الحبل الذي كان مربوطًا بالحربة كان مربوطًا بالقارب ايضًا . والتفتُّ حينئذٍ واذا امُّ الحوت قد دنت منهُ وجعلت تدور حولهُ بسرعة وقبل ان اتمكن من قطع الحبل رأيتها فبادرت اليَّ كأنها جزيرة كبيرة في قلب البحر فادركتُ الخطر الذي كنا فيهِ وناديت بيا وونبا كلانا الى البحر واركنَّا الى الفرار سباحةً على قدر ما تسمح لنا اذرعنا . ولم يبعد عن القارب بضع اذرع حتى سمعت صوتًا صمَّ اُذنيَّ فالتفتُّ واذا الحوتة قد ضربتهُ بذنبها فطيرتهُ في الهواء قطعًا قطعًا. ولا تسل عمَّا خامرني من الانقباض واليأس في تلك الحظة لانني كنت احسبُ ذلك القارب الوسيلة الوحيدة لرجوعي الى بلاد المتمدنين فذهبت آمالي بذهابهِ . وكنا على نحو عشرة اميال عن البر ولا بدَّ من قطعها سباحة اما الحوتة فلما انتقمت من القارب

حاسبة انهُ سبب بلائها عادت الى ابنها وكانت الخرزة لم تزل في يدهِ ولم يزل حبلها عالقاً بقطعة من القارب

وكان المدُّ يزيد والبحر وهو فسهل علينا الوصول الى الشاطئ. واصابت حربتي مقتلاً من الحوت فمات وطفا على وجه الماء وجعل المدُّ يدنيهِ من البر رويداً رويداً وامهُ تسير بجانبهِ مفضلة الموت معهُ على الابتعاد عنهُ حتى اذا جاء الجزر بقيا كلاهما على الشاطئ. واجتمع البرابرة حولهما وهم يصيحون ويجلبون ثم اوقدوا النيران يدعون بها سكان تلك البلاد اصدقاءَ واعداءَ ليشاركوهم في غنيمة باردة وقد رسخ في ذهنهم انني انا اصطدت لهم ذينك الحوتين العظيمين لاشبعهم من لحمهما وان ذراعي فتكت بهما من غير معين فعلتْ منزلتي في عيونهم وصاروا ينظرون اليَّ كما الى معبود عظيم الشان

وهذه الحوتة من أكبر ما رأت عيني قست طولها فوجدتهُ نحو مئة وخمسين قدماً. واقبل الناس عليها من كل فجٍّ بالمئات والالوف مسلحين بسكاكين الاصداف وانتشروا على بدنها كالنمل وجعلوا يقطعون اللحم ويأكلونهُ وثغر بعضهم ثغرة كبيرة في رأسها وخاضوا في دهنهِ خوضاً وظلوا يقطعون اللحم ويلتهمونهُ نحو اسبوعين وكان قد انتن ودبَّ فيهِ الفساد وانتشرت منهُ الروائح الخبيثة وملأوا بطونهم باللحم والشحم حتى لم يعودوا يستطيعون القيام فانطرحوا على الارض يتمرغون ويتوجعون واقبل الاطباء باصدافهم يدلكون معدهم حتى يخففوا آلامهم وهم مع ذلك لا ينفكون عن التهام ما تصل اليهِ يدهم ولاسيما اذا كان طبُّ الاطباء قد خفَّف آلامهم. ولا اظن الوحوش الضارية تفوقهم في النهم والشراهة او تصبر على الالم مثلهم

واغتنمت تلك الفرصة لمقابلة رؤساء القبائل البعيدة واستماع لغاتها والبحث عن اخلاقها وعاداتها عسى ان يكون لي من ذلك نفع اذا سرت في بلادها بعد ان انكسر قاربي وصار سفر البحر ضرباً من المحال

ولما رأت بيا ما نالني من الغم على فقد القارب صنعت لي قارباً صغيراً من لحاء الاشجار طولهُ نحو ١٥ قدماً وعرضهُ نحو قدم وربع وخاطت طرفيهِ ودهنتهُ بنوع من الصمغ استخرجتهُ من جذوع الاشجار فصرت اجلس فيهِ معها واطوف حول الجزائر القريبة من الشاطئ. واتفق ذات يوم اننا خرجنا على جاري عادتنا وكان قصدي الذهاب الى جزيرة كبيرة لاصطياد الخفاش منها لانني كنت اراهُ يطير اليها في الصباح وكان مرادي ان اصنع خفّاً لي من جلدهِ فلما بلغنا الجزيرة ادخلت القارب في مصب نهر صغير ثم نزلت على البر وكانت الارض طيناً لازباً تغطيهِ النباتات الكثيرة الملتفة ولم اسر طويلاً حتى رأيت مساحاً كبيراً فاغراً فاهُ ومقبلاً

اليّ فلما وقع نظري عليهِ جمد الدم في عروقي ووقفت برهة لا ادري ماذا افعل ووقف هو ايضاً كأنهُ استغرب منظري ولم يكن في طاقتي ان ادور وأتيهُ من ورائهِ لان الباقات كانت ملتفّة التفافاً يمنعني من السير بينها وليس فيها ممرٌّ الاَّ طريق التمساح وخطر لي حينئذٍ ان الجأ الى مهارتي في الرَّمْي فمددت اليدِ ورميت في الهواء ووقعت على ظهرهِ وصرخت صرخة عظيمة لكي تسمعني بيا وتسرع اليّ لانني تركتها في القارب . وكانت الفاس في يدي فضربتهُ بها على رأسهِ في مكان اظنهُ مقتلاً ثم حاولت نزعها فلم استطع لانها غرزت فيهِ الى عصاها . واقبلت بيا حينئذٍ اليّ والجذاف في يدها فوضعتهُ في فم التمساح ومدَّت يدهِ حلقهُ فلم يعد يستطيع ان يحرك رأسهُ وكان معي خنجر صغير طعنتهُ بهِ في عينهِ وعاونتني بيا على اخراج الفاس فاجهزت بها عليهِ . ولما عدنا الى البيت جعلت بيا تصف لقومها بسالتي وكيف انقضضتُ على التمساح وقتلتهُ فخرجوا في اليوم التالي بارماثهم وجاؤوا بهِ وقد زاد إعجابهم بهِ اضعافاً مضاعفة وقطعوا لحمهُ قطعاً صغيرةً وبعثوا بها الى كل القبائل المجاورة ليشاركوهم في اعجابهم ودهشتهم

وعزمتُ بعد مدة وجيزة ان انتقل كوخي الى راس اكمة على الجانب الآخر من الخليج (وعرفت بعدئذٍ انهُ خليج كبردج في شمالي استراليا) لكي اشرف على البحر لعلي اشاهد سفينة تمرُّ فيهِ وكان القوم يعلمون ذلك مني وهم الذين اشاروا الى ذلك المكان وقالوا انهُ اصلح لغرضي لكنهم حزنوا على فراقي وأكدوا لي انهم يبقون على ودادي واذا رجعتُ اليهم قابلوني على الرحب والسعة . ولما ودَّعتهم شيعوني الى الجانب الآخر من الخليج وهو يبعد عنهم نحو عشرين ميلاً وساعدوا زوجتي في اقامة كوخ جديد لسكنا وكانوا يزوروننا من وقت الى آخر . وحاولتُ اقناعهم ليستقروا اكواخهم الينا فلم يفعلوا لانهم قالوا ان البرد شديد على تلك الاكمة . واجتهدت بيا ان تجلب لي من الاخشمة كل ما يسرني ولكن الوحدة نغَّصت عيشنا ولما ضاق صدري من استشراف البحر على غير طائل عزمتُ ان ارجع الى حيث كنت واستعدَّ للسفر برًّا لعلي اصل الى مكان تجتاز السفن منهُ . فرجعت ورحَّب الناس بي واقمت بينهم عدة اشهر قبلما تأهبت للسفر . وكانوا يودون ان اخرج معهم للقتال في غزواتهم لكي كنت ارتفع عن ذلك لئلاَّ يروا مني الضعف فاني كنت دونهم في رشق الرماح ولم استطع ان اتمرَّن عليهِ لئلاَّ يتطروني وانا اتمرَّن فيروني دونهم مهارةً وهم اذا استضعفوا انساناً لم يعد لهُ شأن عندهم

واطلعتُ بيا على قصدي وسألتها عما اذا كانت تمضي معي الى حيث امضي فاجابت بالايجاب وكنتُ واثقاً انها لا تتركني ابداً بل تفتديني بنفسها اينما كنت . ولما اتممنا عدات السفر ودَّعتُ القوم فودعوني آسفين على فراقي ولكنهم كانوا يحسبون ان سفري هذا لا بدَّ منهُ

للرجوع الى قومي وشيعني كثيرون منهم مسافة مئة ميل ثم تركوني انا وبيا والكلب نسير وحدنا شرقاً في تلك المجاهل ولا مرشد لي الاَّ بيا زوجتي الامينة . وكنت واثقاً انها ما دامت معي اجد الطعام والشراب وكل لوازم الحياة وبدونها لا اقدر ان اعيش يوماً واحداً في تلك المهامه . وقبل ان ودَّعت القوم اعطوني عصاً عليها حزوز مختلفة جَوازاً لي كنت اريها للقبائل التي امرُّ بها فلا يتعرضون لي بسوء وكثيراً ما كنت امرُّ بقبيلة عرفتُ رئيسها من قبلُ فيحلي على الرحب والسعة اما اذا مررت بقبيلة لا اعرف رئيسها فاطلب من اول رجل امرُّ به ان يأتي بي الى الرئيس حتى اذا وصلت اليه اريتهُ العصا فنظر الى الحزوز التي عليها ورحَّب بي واتاني بطعام وشراب ورسم علامتهُ على العصا وردَّها اليَّ

وكانت الارض التي سرنا فيها كثيرة الاَكام اشجارها بواسق على الشجرة منها ١٥٠ قدماً الى ٢٠٠ قدم وكان طعامنا الجذور والجرذان والافاعي والقناقر ثم زاد حظها بتقدمنا شرقاً حتى صار يعسر عليَّ بيا ان تجد لنا الطعام الكافي . وكنا كلما وصلنا الى قبيلة نقيم عندها بضعة ايام حتى نتعلَّم من نسائها ما هي الجذور التي تؤكل في بلادهم وكيف تستخرج وكيف تطبخ . واذا وجدنا لغة القوم غير مفهومة لجأنا الى لغة يفهمها كل اهالي استراليا وهي لغة الاشارات . وكانت بيا تحمل على ظهرها سلة كبيرة من لحاء الاشجار فيها ادوات مختلفة مما لا بدَّ منهُ لاعداد الطعام وكنت انا احمل قامي وخنجري . ومرت الايام ونحن نسير شرقاً ودليلنا الشمس نهاراً وتلال النمل ليلاً فان ابوابها تتجه دائماً الى الشرق . وقطعنا في طريقنا انهاراً وغدراناً كثيرة بعضها خوضاً وبعضها سباحة

ولم يطل بنا المطال حتى قطعنا الارض الشجراء ودخلنا ارضاً قفراء بل رمالاً محرقة يثور منها غبار يسدُّ الانفاس وكان فيها حفر للماء لكننا رأينا الماء يقلُّ فيها ويبدأ رويداً حتى لم نعد نجد منهُ شيئاً ولم نعد نرى في طريقنا الاَّ اشجاراً قليلة وجرذاناً وحيدة ضالة كنا نبلغ بها تبلُّغاً . وأُسقط في يدي بيا لما رأت انها لم تعد تجد ما يسدُّ رمقي ولكن كان الندى كثيراً في الليل يجتمع على الاعشاب اليابسة وعلى حديد فأسي فالحسهُ بلساني وابرّد ظمأي . اما بيا فلم تعأ كثيراً بفقد الماء من قبيل نفسها على ما ظهر لي وقد قضينا عشرة ايام في قطع تلك الصحراء وكنا بلا ماء في الثمانية الايام الاخيرة منها فكنت كالطفل بين يديها تسيرني كيف شاءت وهي تبذل اقصى الجهد نهاراً وليلاً في جلب الطعام لي وتبريد غليلي ولو بنقط الندى او بمضغ بعض الاعشاب التي تفرز اللعاب . وكثيراً ما كانت تحيي الليل بجانبي ولا همَّ لها الاَّ جمع نقط الندى وصبها في فمي

وفي اليوم الخامس بعد انقطاع الماء بلغ ظمإي اشدَّهُ فيئست من الحياة ولم اعد استطيع الوقوف ولا الكلام وشعرت كأن حلقي انشدَّ واعتراني دوار شديد فانطرحت على الارض واشتدَّ خفقان قلبي حتى خفت ان اجن قبل أن يقضي عليَّ وجحظت عيناي حتى كادت تبدو تخاف مني وخطر لي حينئذٍ ان اقتل كلبي واشرب دمهُ . فوتل الانسان ما اظلمهُ . والآن اكتب هذه السطور وانا اتصورهُ مطروحاً بجانبي على الارض يلهث ولسانهُ مندلع من فيهِ جاف كالخشب وعيناهُ شاخصتان اليَّ كأنهُ يشاركني في الم ، وزاد خوفي رويداً رويداً فزحفتُ الى قرب شجرة وطلبت من الله ان يعجّل في اجلي وكانت بدأت تنقضُّ على الجرذان والعظايات انقضاض السنور وتأتيني بها وتسقيني دمها ولولا ذلك لمتُّ لا محالة. واخيراً لم اعد استطيع بلع الدم وكأنها ضاقت بي ذرعاً حينئذٍ فانحنت وهمست في اذني قائلة انها لا تتركني برهة وجيزة ثم تعود اليَّ لانها رأت طيوراً طائرة ولا بد من انها ذاهبة الى حيث يوجد ماء. فلم استطع الجواب ولا الكلام ولكنني اشرت الى فاسي وطلبت منها بالاشارة ان تقتلني بها ولا تتركني في هذا العذاب فتبسمت وانفضت راسها واخذت الفاس وفرضت بها فروضاً في الشجرة ثم طرحتها بعيداً عني وامتدتني الى ساق الشجرة واخذت تعدو كالعام الجافل وكان الوقت نحو العصر فتولاني في البحران وكنت احلم انها عادت اليَّ باصداف كبيرة محلوءة ماء فافتح عينيَّ ولا ارى احداً

وكثر الندى تلك الليلة وبلل جسمي فاستغرقت في النوم واذا انا بصوت هاتف يناديني ويقول باللغة الفرنسوية " اثقب الشجرة اثقب الشجرة " سمعت الصوت جلياً واستيقظت وانا اظنهُ صوت بيا ثم انتبهت الى انها لا تعرف كلة من اللغة الفرنسوية لاني انما علمتها قليلاً من اللغة الانكليزية التي كنت اتكلمها كما اتكلم الفرنسوية . وفتحت عينيَّ فلم ارَ احداً بجانبي غير الكلب وبقي الصوت يرنُّ في اذني اثقب الشجرة . اواه ولكن من اين اجد القوة للوصول الى الفاس لاثقب الشجرة بها . وفيما انا كذلك سمعتُ خطى بيا فانتعشت قليلاً والتفتُّ واذا هي مقبلة اليَّ ومعها ورقة كبيرة من اوراق الاشجار فيها نحو عشرين درهماً من الماء . فسقتني اياها وللحال زايلني البحران ولكنني بقيت ضعيفاً كما كنت واشرتُ اليها ان تأخذ الفاس وتثقب بها الشجرة فلم تكذب ان رفعتها وضربت بها الشجرة فثقبت جذعها ثقباً عميقاً فخرج منهُ ماء زلال ووضعتُ راسي تحتهُ فانصبَّ عليهِ وانتشي وصرت استطيع الكلام

ستأتي البقية